الأدب الحسينيّ، مقاربة في مشروع التأسيس

أ.م.د حسام قدوري عبد

أ.م.د بشرى ياسين محمد

جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

Al-Husseini Literature: An Approach to the Foundation Project

Asst. Prof. Hussam Qaddoori Abd
Asst. Prof. Bushra Yaseen Mohammed

University of Baghdad / College of Education (Ibn Rushd) for Humanities / Department of Arabic Language

https://doi.org/10.64704/dawat.2025114509

ملخص البحث

هذا البحث محاولة لصناعة مقاربة تأسيسية في (الأدب الحسينيّ)، والتجذير لبناه المعرفية على اختلاف توجهاتها التاريخية والتوثيقية والنقدية، وما يتفرع على ذلك كلّه من تأصيل علميّ يحاول إعادة التشكيل، والصياغة العلمية له على أنه أدب يمتلك قيمة كبرى لا نجدها في غيره من الآداب، وهي إنسانيته.

ولكنّ هذه الخطوة ليست هدفًا ساذجًا يتناسب مع تصحيح المفاهيم فحسب، وإنما علينا الاعتراف بأهمية هذه الخطوة تاريخيا وعقديا في وقت واحد. بل إنّ الأدب الحسينيّ بكيانه الضخم يُلحّ في ترسيم علاماته وأسسه ومفاهيمه بكونه أدبًا عالميًا إنسانيًا يتجاوز الحدود الضيقة للزمان والمكان، إذ يمتلك هذا الأدب من الخصائص الفريدة التي قلّما نجدها في غيره من الآداب العالمية، ومنها:

١- كونه أدبًا لا يقتصر على اللغة العربية، فقد كتب بلغات كثيرة. بما يضفي عليه صفة العالمية.

٢- كونه أدبًا تجاوز في عمره أربعة عشر قرنًا.

٣- كونه أدبًا تجاوز حدود المعتقد الواحد، أو الدين الواحد.

٤- كونه أدبًا يحتوي كمّا من التجارب الإنسانية، بما يجعله خزانة توثيقية لثقافات وحضارات متعددة ومختلفة، وهي ميزة فريدة قلّما نجدها في آداب أخرى.

٥- كونه أدبًا احتوى عددًا غير قليل من الأجناس والأنواع.

يهدف المشروع للتأسيس والجمع والتأليف في الأدب الحسينيّ على مستويات كثيرة؛ منها: المستوى التوثيقيّ، والنقديّ، والتنظيريّ، والأكاديميّ، والإعلاميّ.

الكلمات المفتاحية: الأدب، الإمام، الحسين، التأسيس.

Abstract

This research attempts to develop a foundational approach to Husayni literature, rooting its epistemological foundations in their various historical, documentary, and critical orientations. This is complemented by a scientific foundation that attempts to reshape and scientifically formulate it as a literature possessing a greater value unseen in other forms of literature: its humanity. Nevertheless, this step is not a naive goal, merely a matter of correcting concepts. Rather, we must acknowledge its importance, both historically and doctrinally. Al-Husayni literature, with its vast body, insists on defining its characteristics, foundations, and concepts as a universal, humane literature that transcends the narrow confines of time and place. This literature possesses unique characteristics rarely found in other world literatures, including:

1. It is not limited to the Arabic language, having been written in many languages, giving it a universal character.

2. It is a literature spanning over fourteen centuries.

3. It is a literature that transcends the boundaries of a single belief or religion.

4. It is a literature that encompasses a wealth of human experiences, making it a documentary treasury of diverse cultures and civilizations, a unique feature rarely found in other literatures.

5. It is a literature that encompasses a significant number of genres and types.

The project aims to establish, collect, and compile Husayni literature on many levels, including: documentary, critical, theoretical, academic, and media.

Keywords: Literature, Imam, Hussein, Foundation.

التمهيد: الأدب والوعي الحضاريّ:

تكشف مقاربة الخوض في ماهيّة الأدب بعدًا حضاريًا يتجلّى بوضوح في الفهم التقليديّ للأدب على أنه ذلك النشاط الإنسانيّ الذي يحاول مقاربة اللغة؛ لكونها الواسطة الصانعة له في أبعاد تتماهى وروح اللغة؛ وهي الأبعاد الإيصالية والتأثيرية، والجمالية[1]، فاللغة بما هي لغة تمتلك البعد الجوهريّ العام، وهو الإيصال والإبلاغ لكنّها تتجاوز ذلك لتصبح أدبًا حينما تخترق ذلك لتكون مؤثرة، وذات سمة جمالية. ويقدّم خريستو تودوروف رؤية تلخّص رأي رولان بارت في هذا الخصوص فيقول: (وهكذا، يحدد بارت نوعين من الدلالات في النص الأدبي: الدلالة الحقيقية والدلالة الضمنية. الدلالة الأولى – هي المعنى المباشر الذي ينتج عن اللغة الطبيعية: الموضوع أو الدلالة الاجتماعية والمعرفية. المعنى الحقيقي – حسب بارت – هو المعنى الأوليّ، وهو غير مقصور على النتاج الأدبي، وعليه فهو غير مهمّ لدارس الأدب. وعلى عكس ذلك فإن المعنى الضمنيّ هو جوهر العمل، ويُنظر إليه كدالّ متكامل وهذا المعنى هو المعنى الأدبي المميز والخاص. ولما كان هذا معنـــى ضمنيا فهو اعتباطي لا ينبثق من طبيعة النص، وعليه فإنّ النص يترك للقارئ)[2].

وفي أوّل ما سطّره السكاكيّ (ت ٦٢٦هـ)، والقزوينيّ (ت ٧٣٨هـ)، وشرّاحهما من أبجديات البلاغة العربية نجد مقاربة التمييز الفاصل بين ما هو لغويّ وما هو بلاغيّ حينما تعرّضا للخبر وأنواعه[3]، فجعلاه يسير في خطوات متدرجة من كونه سمة لغوية ليصبح قيمة أدبية فكان على ثلاثة أنواع؛ ابتدائيّ وطلبيّ وإنكاريّ[4]، وحديثهم عن عبارات مثل (خلوّ الذهن)، و(الإنكار)، و(التأكيد) يدلّ بوضوح على استيعاب البلاغيين للقيم الأدبية للغة التي تنتقل من الإيصال إلى الحجاج والإقناع، والحديث في هذا الأمر يجرّ للسجال في إرجاع الحقوق التي يدّعيها النحويون لعلم المعانيّ – بحسب زعمهم– وكونه إرثًا مسروقًا يجب إعادته، والحقّ أنّ

الأمر مبنيّ في جوهره على ملاحظة الفرق الدقيق بين توظيف الإنسان للغة، وعبورها ذلك التوظيف لجعل اللغة مبدعة مؤثرة؛ فابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) وهو من رسّخ بقوة القيم اللغوية في تعريفه الأشهر للغة في أنها (أصواتٌ يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم)[٥] إلّا أنّ غموض عبارته مبنيّ على عدم وضوح ملامح وجهَي المسألة، ونعني بهما اللغة والأدب، فالتعبير عن الأغراض يمكن أنْ يكون حجةً ووثيقة للنحويين، والبلاغيين في آنٍ؛ فالأغراض مفهوم غائم يمكن أن يشمل البعد التواصليّ، والبعدين التأثيريّ والجماليّ كذلك.

تبدو مقاربة البعد التأثيريّ والجماليّ أكثر تعقيدًا من البعد الإيصالي للغة؛ لكونه يعكس بعمق قضية التداخل المعرفيّ بين اللغة والفلسفة، والمنطق، والجمال في مكوّنات غايتها الاحتجاج، والإقناع، ومن ثم الجمال بما يحمل من رؤى فلسفية. والبلاغة العربية في تصنيفها الثلاثي تعكس ذلك حين يمثّل علم المعاني القيم الإقناعية، ويمثل علما البيان والبديع المكنونات الجمالية للأدب، وليس اللغة.

ومن هذه المقاربة يمكننا البدء بالتنظير لتلك العلاقة الرابطة بين الأدب والوعي الحضاريّ؛ فالانتقال من مرحلة الجهد الإنسانيّ اللغويّ الإيصالي، أو محض الخبر إلى السمة الإقناعية، والجمالية التي تحققها فائدة الخبر تلتزم أن يتّسم الأدب بروح الحضارة الإنسانية التي تنطلق من التجربة الفردية إلى الوعي الجمعيّ والعكس.

فلنقل: إنّ الأدب لا يكون أدبًا إلّا إذا كان حجاجيًا إقناعيًا جماليًا في شكله من جهة، ومختزنًا للحضارة في جوهره من جهة أخرى. فالشعر كما يرى المناطقة على وفق التقعيد الأرسطي من وسائل الحجاج، والإقناع؛ فالصناعات الخمسة (البرهان، والجدل، والخطابة، والشعر، والمغالطة)[٦] التي وضعها المنطق الأرسطيّ تجعل الشعر والخطابة جزءًا من عملية الحجاج والإقناع. وكلا الجهتين توضّح القيمة الحضارية للأدب في كونه هضمًا، وإعادة تشكيل مستمرين

للحضارة.

نحن أمام مواجهة معرفيّة خطيرة ترتسم جدلية التاريخ والحضارة وعلاقتهما بالأدب، فالحضارة والتاريخ يصطرعان ليخلقا الأدب، الذي يعكس بدوره محاولات جادّة لعمليتي الهضم والتشكيل المستمرين لهذا الاحتدام في الصراع، ومن هنا أصبحت قيمة دراسة الأدب على وفق المنهج التاريخيّ، والرؤية الاجتماعية مهمة جدًا، لكونهما يؤطران هذه الجدلية، وينظّمان أسسها.

المطلب الأول: الإسلام، الحضارة، الأدب:

قدّم الإسلام رؤيته الحضارية العالمية، رؤية تتجاوز الوعي الضيق للثقافة الجاهلية، وهي رؤية تتصف بالاتّساع والعمق، وتجاوز حدود المكان، والزمان، تلك الرؤية التي ميّزته عن غيره من الحضارات، وهي انتمائها للخالق سبحانه وتعالى، وهو ما يجعلها – أي الرؤية– تمتلك صفات شمولية لم تكن موجودة، وعلى الرغم من وجود ديانات ذات بعد تأثيري فعّال كالبوذية مثلًا إلّا أنّ البوذية تنتقل من الشخصنة الفردية إلى العالم، أما الإسلام فإنه ينطلق من قيمة إلهية موجّهة ومنظمة للكون كله.

قد تمتلك الديانات اليهودية، والمسيحية سمات مشتركة مع الإسلام، في الانتماء، وأصل التوحيد لكنّ النصوص الدينية لهما تختلف كثيرًا عن القرآن الكريم، في طبيعة اللغة، وفقدانها لعنصر الإعجاز، وتشكلها في خطاب بشريّ في الأعمّ الأغلب، وهو ما أفقد نصوصها الصمود في مواجهة البعد الأدبيّ للحضارات الأخرى خلافًا للقرآن الكريم؛ الذي طرح لأول مرة شيئًا جديدًا في معادلة الحضارة والأدب.

قدّم الإسلام حضارته في واجهة أدبية تمتلك عنصرًا يطرح نفسه بديلًا للموجود الأدبيّ، فالعرب الذين اعتادوا هيمنة الشعر صدموا بالبديل الثقافيّ الأدبيّ، ولم يكتف القرآن بذلك، بل خلق معادلة محرجة لهم، فدعاهم لطرح المنجز الأدبيّ البديل، وتدرج في التحدي من الإتيان بمنجز أدبي متكامل إلى جزء منه – أي بسورة واحدة–؛ كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٣]، كأنّ المعادلة التي يفرضها تقول: أين المنجز؟، قال الطبريّ (ت ٣١٠هـ): (وأنّ ما جاء به مِن عندي، عجزُ جميعِكم وجميعِ مَن تستعينون به مِن أعوانِكم وأنصارِكم عن أن تأتوا بسورةٍ مِن مثلِه، وإذا عجَزتم عن ذلك وأنتم أهلُ البراعةِ في الفصاحةِ والبلاغةِ والذَّرابةِ، فقد علِمتم أن غيرَكم عما عجَزتم عنه مِن ذلك أعجَزُ)[٧] والذي يثير معادلة أكثر أهمية في كونه باقيًا إلى يومنا هذا، وهذا يستلزم أنّ البديل القرآنيّ يمتلك مقومات الصراع المستمر.

ينظّر الإمام الصادق (ع) لديمومة هذا المنجز الأدبيّ، وكونه فعلًا لا يمكن طرح منافس يكون عوضًا عنه بما عرف بقاعدة الجري، المأخوذة من قوله (ع): (إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا)[٨]، فالأدب القرآني على وفق قاعدة الجري يمتلك مقومات البقاء الزمانية، والمكانية، بل يتجاوز ذلك إلى طرح النصّ القرآنيّ بلغته العربية منافسًا هو الأقوى للمنجز الأدبيّ في سائر اللغات الأخرى.

ولا يمكن الاقتناع بعدم خضوع البديل الجديد لنظرية النشوء والارتقاء؛ فالمفترض أن يمرّ بمراحل وتجارب مريرتين حتى يمكن افتراض كونه بديلًا فعّالًا يأخذ مكانة الأدب السائد في الواقع! هذا الأدب سيجد أمامه عقبتين عليه تجاوزهما؛ الأولى في الشكل، بمعنى ما الذي سيطرحه من أشكال أدبية مختلفة؟ والثانية في محتواه.

ومن المسلّم به أن العقبة الشكلية –ولو ظاهرًا– ستكون هي الأكثر تعقيدًا؛ فالتنازل عن القوالب الكلاسيكية، والأنماط التقليدية يمثل إرهاصًا صعبًا، أما العقبة الثانية فإنها تتجه وفق معطيات اكتساب الحضارة الجديدة واستقرارها، وهضم جوهرها ليكون هو القوة المنتجة للإبداع، والتجلّي، والانعكاس.

وقد تحدّثت الدراسات الحديثة عن موقف الإسلام من الشعر، وما

عكسته الآيات القرآنية من موقف صارم في نقد الشعر والشعراء، لكنّ الأغلب في هذه الدراسات غفلتها البحث في هويّته التي تفصله عن غيره، وتجعله في موقف المقارنة مع المنظومات الفكرية والحضارية الأخرى التي تبدي آراءها تجاه الأدب.

والسؤال الأكثر أهمية في هذا المجال سيكون: ما الجديد في الأدب الإسلاميّ، ومقولته الكبرى؟ وتأسيسًا على ما رسّخه أساطين البلاغة قديمًا، والتنظيرات الحديثة؛ كالذي تلمسناه من حديث تودوروف وبارت فإنّ الأدب سيبتدئ من حيث تنتهي اللغة؛ تلك اللغة بمفهومها القواعديّ الكلاسيكيّ الذي تعلّمنا أبجدياتها الأولى من أبيات ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم

واسمٌ وفعلٌ، ثم حرفُ الكلم

ولدينا من الوثائق الدامغة التي تشير بوضوح لماهية الأدب الجديد؛ فهو الأدب الذي يتجاوز المشترك الأول؛ ونعني به اللغة ليصنع رؤاه التأثيرية والجمالية الخاصة به.

وأولى تلك الوثائق الحروف المقطعة في السور القرآنية؛ التي حيّرت المفسرين في تأويل وجودها، ومن ثم تأويل معانيها، فكان من تلك المعاني أنّا رسالة مباشرة للمشركين بالتحدي، فالحروف حروفهم، واللغة لغتهم، لكنهم عاجزون عن صنع المنجز الأدبيّ المعارض على رغم تسلّطهم وسطوتهم في الأدب والشعر، بلاغة وفصاحة [٩]. هذا الرأي المشهور يختلف في بنيته المعرفية عن بقية التفسيرات الخاصة بالحروف المقطعة؛ فهو لا يتناول تفسير معانيها، بل يتجاوز ذلك إلى تفسير وجودها، وغايتها.

ثم تأتي الوثيقة الثانية؛ وهي وثيقة قرآنية أيضًا، وهي اتهام المشركين والكفار للقرآن والرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) بالشاعرية والشعر، ومن ذلك: ﴿وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [سورة يس :٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الحاقة :٤١].

يمكننا القول: إنّ هذا الاتهام

ينطلق من تلمسهم العميق- بفطرتهم- لهذه المرحلة من الانتقال من اللغة إلى الأدب، فاللغة لغتهم، لكنّ الأدب ليس أدبهم، وهو ما دعاهم للإيمان باختلاف جوهره وماهيته عن أدبهم، فرموه بأنه نمط أدبيّ وشعريّ مغاير، ولما لم يجدوا سببًا مقنعًا في هذا الاتهام عدلوا للتعليل الميتافيزيقيّ له، وقد رصد القرآن الكريم إرهاصات هذا السلوك والتعرّف على النصّ القرآنيّ لدى المشركين في قصة واحد من مشركي مكة الذي حاول سبر غور هذا النموذج الأدبيّ الفريد الغريب غير المألوف، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ١٨-٢٥]. فهو نمط أدبيّ يبدو مألوفًا بلحاظ لغته، لكنه ليس بمألوف في جوهره، وصناعته، ولعلّ وصفه بالجنون سيخرجهم من حرج التفكير في هذا البديل الكاسح لأدبهم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٦]، فالمراهنة على الغيبيات، وغي المرئي ستخرجهم من حرج المنافسة كما يظنون، ولاسيّما أنّ القرآن الكريم قد وصف نفسه بأنه وحي، وعليه فإنّ الخروج من المأزق سيكون عبر تفسيره بالغيبيّ، ولكن ليس بالتسليم للقرآن، بل لعنادهم!

أما الوثيقة الثالثة فهي إرهاصات ردّ الفعل للثقافة السائدة، والذهنية الجمعية التي حاولت فهم ماهيّة هذا الشكل الأدبيّ الجديد، وظهر ذلك في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس عن المعاني القرآنية ومقاربة تشكلها، ووجودها في النمط القديم نفسه، فقد ورد في قصة هذا اللقاء (يا ابن عباس، ما يحملك على تفسير القرآن والفتيا بما لا علم لك به؟ أشيئا سمعته من رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)؟ أم هذا منك تخرّصًا؟، فإن كان هذا منك تخرّصا فهذه والله الجرأة على الله عز وجلّ!

فقال ابن عباس مجيبا لنافع بن الأزرق: لا والله، ما هذا مني تخرّصا، لكنه علم علمنيه الله...وقال نجدة: فإنك

تريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عزّ وجل، فتفسره لنا، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب، فإن الله عزّ وجل أنزل القرآن بلسان عربي مبين) (١٠).

هذه الوثائق وغيرها تبيّن بشكل لا يقبل الشكّ مقبولية مقاربة تشكّل الأدب الإسلاميّ، وبروزه بديلًا؛ لكونه يختزن الحضارة الإسلامية في مضمونه، وانطلاقًا من مقولة التحدي والإعجاز المبنية على وحدة اللغة وتنوّع الأدب، هذا الأمر يجعل البدء بالتنظير للأدب الإسلاميّ واستقلاله واستيعابه للتشكل والتجذير، والاتّساع في الأنواع أمرًا حتميًا.

المطلب الثاني: صراع الحضارة، والأدب:

تحدّث الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سرّه) عن صراع الأئمة المعصومين (عليهم السلام) مع الباطل، وأنّ ذلك الصراع أخذ يتشكّل بصور مختلفة، وهو ما استدعى أن يعمد الأئمة (عليهم السلام) للمواجهة بالضدّ النوعيّ، هذه الفكرة تجرّنا للحديث عن مجموعة من الوثائق المهمة التي تكشف قيمة اهتمام الأئمة (عليهم السلام) بترسيخ الحضارة الإسلامية، والأدب الإسلاميّ.

في جمعه لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة لا نجد أيّة قيمة حقيقية للشعر مقابل النثر؛ إذ يختفي فلا نجد غير أبيات قليلة تعدّ على عدد أصابع اليد؛ وهو ما يمنحنا فرصة افتراض تراجع القيمة الفاعلة للشعر أمام النصّ النثريّ المتماهي في النصّ القرآنيّ، وهي قضية تستحق إفرادها ببحث مستقل.

يزداد موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) انتصارًا للأدب الإسلاميّ في روايتين، تتحدث الأولى على لسان الفرزدق من ورود أبيه على أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإخباره بأنّ ابنه الفرزدق الصغير يومذاك شاعر، فكان جواب الإمام (عليه السلام): (علّمه القرآن فهو خيرٌ له من الشعر)(١١). والموقف حاسم في حسم الصراع لصالح البديل الجديد، لكنّ تبعات هذا الحادث، وهي تقبّل الفرزدق لهذه النصيحة، وكونها لا تنتهي بحفظ القرآن، كما تظهر القصة، وإنما في عملية إنتاج النصّ الأدبيّ البديل،

ولا سيّما أنّ الفرزدق كان له أثر فاعل في نكوص الأمويين ومحاولتهم استعادة الحضارة الجاهلية كما سنذكر لاحقًا.

وفي موقف آخر نجد أمير المؤمنين (عليه السلام) في المدائن، وهو يخبر أصحابه عن الفرس وحياتهم فينشد أحد أصحابه قائلًا:

جرتِ الرياحُ على رسوم ديارهم
فكأنهم كانوا على ميعادِ

فكان جواب الإمام (عليه السلام) صادمًا للمألوف: هلّا قلتَ قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ. فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [سورة الدخان: ٢٥-٢٩](١٢).

استطاع الأمويون النكوص، والعودة للمثال الحضاريّ الجاهليّ، وامتدت آثار ذلك لترسخ القيم النقدية على وفق هذا المثال، فأصبحت القيم النقدية مبنية على هذا المثال، وإن كان للبلاغيين يد حقيقية في محاولات استعادة الأدب والتوازن على وفق المثال القرآنيّ، وهنا تظهر جدلية التناقض في الدراسات؛ فالدراسات البلاغية تحاول جاهدةً صرف الانتباه للمثال القرآنيّ بينما تميل الكفة راجحة في النقد للمثال الجاهليّ!

هناك تساؤلات تفرض نفسها في خضم الصراع للعودة إلى الثقافة الجاهلية، فالقصائد السبع الطوال الجاهليات في مقابل السور السبع الطوال، والمعلّقات بما تحمل من قيم الجاهلية عُلّقت على وفق روايات مشكوك فيها – ما لم تكن مختلقة أصلًا- لتمنحها قداسة في مقابل النصّ القرآنيّ، وهي تساؤلات مشروعة فيما التفتنا لمجابهة الإمام السجاد (عليه السلام) لهذا الضدّ النوعيّ عن طريق طرحه لأنموذج فريد من الأدب يرتكز على المثال القرآنيّ، وهو الصحيفة السجاديّة، فالنقائض التي رعت الدولة الأموية استمرارها بما يزيد على أربعين عامًا جوبهت شكلًا ومضمونًا بالصحيفة السجاديّة.

لم يخضع هذا الموضوع للدراسة،

بل غفل عنه الدارسون، ولا سيّما أنّ الدراسات الأكاديمية الحديثة استوردت مقولات تاريخ الأدب العربيّ من المستشرقين ككارل بروكلمان وأمثاله، ولم يدر في البال قيمة دراسة الأدب على وفق صراع الجاهلية والإسلام! واكتفى الدارسون بالرضوخ لمقالة التقسيم الزمنيّ للأدب على وفق العصور؛ هذا التناقض المستغرب الذي يجعل خطب الإمام الحسين (عليه السلام) في أحداث كربلاء تنتمي لأدب العصر الأمويّ!

حاولت بعض الدراسات الخروج على هذا المألوف المتناقض؛ ومنها محاولة سيد قطب للتأسيس لأدب قرآنيّ في تفسيره (في ظلال القرآن)، وكتابيه (مشاهد يوم القيامة)، و(التصوير الفنيّ للقرآن)، وعلى الرغم من تنظيراته للمجتمع الجاهليّ المعاصر إلا أنّه لم يستثمر ذلك في التنظير لانعكاس هذا الصراع، وأثره في تشكّل الأدب الإسلاميّ.

يمكننا القول: إنّ تجربة الدكتور البستانيّ في صناعة أدب يقوم على الحضارة مهمة جدًا، لكنه لم يُحسن الترويج لها، وهي تجربة حقيقية يمكن توظيفها واستثمارها في هذا المجال.

والتأسيس على هذا يضعنا أمام مقاربة مهمة لصناعة مفهوم الأدب الحسينيّ، وتفريعاته، والتنظير لصناعة مصطلحات خاصّة به، ودراسة هذا الأدب على وفق المناهج التاريخية والنقدية، والسعي لتوثيقه منذ النشوء إلى يومنا هذا.

المطلب الثالث: الأدب الحسينيّ، المفهوم والطموح:

نحن أمام مفارقة منطقية تاريخية صارخة، فالشعر- كالأراجيز- الذي قيل في يوم الطفّ مثلًا يُصنّف تاريخيًا - كما يعهد الدرس الأكاديميّ- ضمن الأدب الأمويّ! فكيف يُعقل أن يكون هذا الأدب حسينيًا أمويًا في وقت واحد؟! ولعلّ هيمنة الخنوع للمقولات الأكاديمية الموروثة يجعلنا أمام كثير من المفارقات التي لا تصمد أمام التصنيف المقبول لها. وفكرة تأليف موسوعة بمسمى موسوعة الأدب الحسينيّ تمثل بادئ الأمر خطوة تصحيحية لواحدة من

تلك المقولات الموروثة التي اعتدنا على تقبلها من دون إبداء تعنت في رفضها.

إن الخنوع أمام الموروث من شكليات التقسيم الأكاديميّ يجعلنا أمام مهمة تاريخية تتجاوز ما يلقى على عاتقنا في توثيقه، والحفاظ عليه ونشره إلى مهمات أكثر أهميةً، وهي زعزعة البنى الراكدة التي اعتدنا على هضمها وتقبلها من دون إبداء معارضة، أو حتى نفور، فالأدب الحسينيّ الذي ينتمي لوعي الثورة الحسينية يعكس بجدّية الثورة على كلّ ما هو استعباد، وخنوع، ومن هذا وغيره تبدو فكرة الشروع في التأسيس والعمل على هذه الموسوعة هدفًا علميًا ساميًا.

تبدأ المقاربة في تحديد مفهوم المركب الإضافيّ الخالق للمصطلح المقترح، أي الأدب الحسينيّ، الذي يمكن تفكيك بنيته إلى (الأدب)، و(الحسينيّ)، الأمر الذي يجعلنا نسير في خطين: الأول منهما يبحث في تحديد (الأدب) وماهيّته، والبحث عن المشكلة البحثية المتمثلة في تناقضه بسبب التقسيم الزمنيّ مع وجوده العقديّ؛ لكونه صوتًا ينتمي للإمام الحسين (ع)، ولا يمكن توصيفه بالانتماء إلى العصرين الأمويّ والعباسيّ. أما الخط الثاني ففي تحديد قيمة انتماء هذا الأدب إلى الإمام الحسين (ع) نفسه.

يبدو من السهولة بمكان افتراض مفهوم أوليّ للأدب الحسينيّ، فهو الأدب المنتمي لسيد الشهداء (عليه السلام)، ولكنّ الفكرة ليست بهذه السذاجة، فهذا الارتباط مبنيّ على حدود اقتران ذلك الأدب بالشعر بدايةً، وبواقعة الطفّ ارتكازًا؛ وهذا قصور يؤدي لاقتران الأدب الحسينيّ بالشعر الحسينيّ، أو ترادفهما نوعًا، ولكنّ تفكيك عنصري هذا المركب الإضافيّ إلى (الأدب)، و(الحسينيّ)، ثم معرفة حيثيات كلّ منهما على حدة، ومن بعد ذلك مزجهما مرة أخرى سيضعنا أمام مقاربة جديّة لفهم هذا المفهوم الذي سيصبح مصطلحًا بجهود الدارسين إن شاء الله تعالى.

الأدب في حدود شكلية التصنيف يمكن دراسته من حيث ماهيته

وغايته وأنواعه، وبالتالي فإنّ كلّ قيمة منهنّ تجعلنا أمام تشعبات كثيرة. فالأدب كما هو معروف يسير في خطّين تقليديين؛ هما الشعر والنثر، ومع دخول الباحثين في جدلية التشكل الحديث لقصيدة النثر، والأشكال العروضية التقليدية والحديثة كالعمود والتفعيلة، وغير ذلك سيؤسس لتقسيمات مختلفة للأدب الحسينيّ، بحسب كلّ توجّه منها، كالشعر العمودي، والشعر الحر، وقصيدة النثر، وغير ذلك، ولا يقلّ النثر تشعبًا في هذا الميدان أيضا، فلدينا تجارب نثرية مميزة من التراث القديم؛ منها أدب السيرة الحسينية، وخير مثال عليها كتب المقاتل، بل نجد تجربة فريدة لابن الأبّار الأندلسيّ فريدة في صياغة مقامة حسينية ليس لها نظير، وهي (لئالئ السمط في أخبار السبط)، ومع التشعب الهائل لقضية النثر وتشكل الأنواع الجديدة فإنّ الأدب النثري سيتجاوز حدود القصة بأنواعها والرواية بأنواعها، والمسرحية بأنواعها، والمقالة بأنواعها، وكلّ المستحدثات النثرية الأخرى... إلخ.

ويمدنا المنهج التاريخيّ برؤى تزيد الموضوع اتّساعًا؛ فالأدب الحسينيّ يتجاوز في مفهومه الزمانيّ والمكانيّ واقعة الطفّ الخالدة؛ إذ يهتم بما يتعلّق بسيد الشهداء (عليه السلام) في حياته كلّها، بما يجعل أدب الطفّ جزءًا من هذه المنظومة الكبرى.

أما الجزء الثاني من المركب الإضافيّ؛ وهو (الحسينيّ) فإنه سيتجاوز ضيق الأفق بارتباط الأدب بواقعة الطفّ، وعليه يمكننا القول: إنّ انتماء الأدب للحسين (عليه السلام) سيجعلنا ننظر له من وجهتين:

أن يكون معنى الأدب الحسينيّ ما نُسب إليه هو (عليه السلام) من أدب في حياته، ويشمل كلامه المنثور في مصادر الروايات، والأدعية، كدعاء يوم عرفة مثلًا، والتاريخ والتفاسير، والأدب، وغير ذلك، والشعر الذي نُسب إليه في المصادر.

أن يكون معنى الأدب الحسينيّ ما قيل فيه (عليه السلام) في حياته كلها، وبعد استشهاده، ويشمل الأنواع الأدبية

كلّها، وهذا المفهوم يشمل الآتي:

القرآن الكريم، ومناط البحث فيه يعود للتفاسير والمرويات، كآيتي التطهير، والنفس المطمئنة مثلاً.

الأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وأله)، والأئمة المعصومين (عليهم السلام)، وتشمل ما ورد في وصفه وشمائله وفضله، واستشهاده ... إلخ.

ما قاله سائر الناس –من المسلمين وغيرهم – قديمًا وحديثًا فيه، شعرًا ونثرًا في زمانه، وبعد استشهاده.

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تعدد اللغات التي أنتجت الأدب الحسينيّ فإنّ بروز الأدب الحسينيّ المقارن سيكون وليدًا حتميًا يكون له وجهة بحثية خاصة به.

ومع دمج المركبّ الإضافي سيتضح حجم الأدب الحسينيّ، وتوثيق كونه الوجه الأكبر للأدب الإسلاميّ البديل المنشود المواجه للأدب الجاهليّ. وعليه يمكننا طرح فكرة التأسيس له في موسوعة تحاول التوثيق للأدب الحسينيّ بما يليق به.

الهيكل العام للموسوعة:

تقع الموسوعة في شكلين؛ الأول منهما متخصص، والثاني على شكل موسوعة صغيرة تستهدف غير المتخصصين.

تقع الموسوعة في أجزاء، يقع على عاتقها تبني المستويات التنظيرية والتطبيقية المذكورة في أعلاه.

يضاف للموسوعة تأليف كتاب منهجي بعنوان الأدب الحسينيّ، يكون بطابع أكاديميّ تعليميّ.

الأجزاء المقترحة:

١- الجزء الأوّل: وهو الجزء المفاهيميّ، ويختزن مجموعة مقاربات مصطلحية تحدّد ماهيّة الأدب الحسينيّ، وما يتعلّق به من مصطلحات؛ مثل: الشعر الحسينيّ، وأدب الطفّ، والطفّيات، والعباسيات، والزينبيات، ... إلخ، ويمكنه الحديث عن الأجناس والأنواع أيضًا.

٢- الجزء الثاني، والثالث: وهما الجزءان التاريخيان، ويتكفلان برصد تاريخي لنشوء الأدب الحسينيّ، وارتقائه عبر

التاريخ. وقد يحتاج الأمر لجزء رابع.

٣- الجزء الرابع، والخامس، والسادس، وهي الأجزاء النقدية، وقد يحتاج الأمر لأجزاء أخر.

٤- الجزء السابع: وهو الجزء الخاصّ بالأدب الحسينيّ المقارن.

٥- الجزء الثامن: وهو الجزء الخاص بالأدب الحسينيّ والمرجعيات الثقافية، والأنساق غير الأدبية، كالفنّ والمسرح.

٦- الجزء التاسع، والعاشر: وهما الجزءان الخاصّان بالتراجم لأدباء الأدب الحسينيّ وشعرائه، وقد يحتاج الأمر لزيادة الأجزاء فيه.

والحمد لله ربّ العالمين أولًا وآخرًا.

الهوامش:

١- ينظر ما كتبه تودوروف في جدلية البناء والوظيفة وهو يحاول الخوض في ماهية الأدب، ونلحظ تردده في قبول تشكيل مفهوم متكامل للأدب، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، سفيتان تودوروف، ترجمة: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية، دمشق- سورية، ط/١، ٢٠٠٢م: ٥-٨.

٢- نقد مفهوم الأدب عند رولان بارت، خريستو تودوروف، ترجمة: حسين جمعة، مجلة نوافذ، النادي الأدبيّ الثقافيّ بجدّة، السعودية، ع١٢، ٢٠٠٠م: ١٠٠.

٣- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت، ط/٣، د.ت: ج٢/ ١٩٥-١٩٦.

٤- ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط/١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ٥٠ فما بعدها.

٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/٤، أوفست: ج١/ ٣٤.

٦- ينظر: المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر الإسلاميّ لجماعة المدرسين، قم المقدسة، بلا معلومات: ٣٥٧.

٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م: ج١/ ٣٩٦.

٨- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة المولى الشيخ محمد باقر المجلسيّ (ت١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان، ط/٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م: ج٣٥/ ٤٠٤.

٩- ينظر: تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت: ١٨٢-١٨٣. والانتصار للقرآن، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمد عصام

القضاة، دار الفتح - عَمّان، دار ابن حزم - بيروت، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م:ج٢/ ٧٨٢.

١٠- سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، تحقيق: د. إبراهيم السامرائيّ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م: ٥.

١١- ينظر: المستطرف من كلّ فن مستظرف، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهيّ (ت٨٥٢هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤١٩ هـ: ٢٤.

١٢- ينظر: مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازيّ الشاهروديّ، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، ١٤١٩هـ: ٩/ ٣٥٣.

المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

١ – الانتصار للقرآن، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، ط/ ١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٢– الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط/ ٣، د.ت.

٣– بحار الأنوار لجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة المولى الشيخ محمد باقر المجلسيّ (ت ١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء بيروت – لبنان، ط/ ٢، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.

٤ – تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

٥– جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة، مصر، ط/ ١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٦– الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/ ٤، أوفست، د.ت.

٧– سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، تحقيق: د. إبراهيم السامرائيّ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

٨– علم المعاني، عبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦ هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط/ ١، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

٩ – مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازيّ الشاهروديّ، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، ١٤١ هـ.

١٠– المستطرف من كلّ فن مستظرف، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهيّ (ت ٨٥٢ هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط/ ١، ١٤١٩ هـ.

١١ – مفهوم الأدب ودراسات أخرى، سفيتان تودوروف، ترجمة: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية،

دمشق- سورية، ط/١، ٢٠٠٢م.

١٢- المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر الإسلاميّ لجماعة المدرسين، قم المقدسة، بلا معلومات.

١٣- نقد مفهوم الأدب عند رولان بارت، خريستو تودوروف، ترجمة: حسين جمعة، مجلة نوافذ، النادي الأدبيّ الثقافيّ بجدّة، السعودية، ع١٢، ٢٠٠٠م.